

الفعل التواصلي مقاربات مفهومية

عميسات وسيلة

ملهولوم الاتصال ومقارباته: LA COMMUNICATION

لم يعد الاتصال تلك العملية البسيطة و المستقلة في نقل المعلومات من شخص لآخر ، بل تعداه إلى ما هو أبعد من ذلك و أصبح يمثل كل أنواع التفاعل الإنساني و ما يشمل عليه من علاقات بين الأفراد أي أصبح يمثل الفعل ورد الفعل بدلا من العمل فقط. و تكتنف لنا التحليلات الواعية هذه العملية الثقافية عن وجود أبعاد إضافية لعملية اجتماعية معقدة²¹.

La communication: omniprésente, mais toujours imparfaite²²

"الاتصال موجود في كل مكان ولكنه دوما ناقص"

هذه هي المفارقة الكبيرة و الغريبة في نفس الوقت التي يشهدها المجتمع الجزائري. فمشكلة الاتصال تحدث بمزأى من الثورة العظيمة التي يشهدها العالم في مجال الإعلام و الاتصال بمعناه البلاغي الآلي. ثورة شملت كل جوانب الحياة ووصلت إلى أبعد الحدود في العالم و لكنها لم نستطع الجمع بين الأفراد .

فأين مكمن الإشكالية في هذا التناقض بين تواصل إنساني مرغوب و لكنه ملغود و ثورة إعلامية جعلت العالم أكثر حداثة و ألغت كل الحدود بين الدول وأصبح العالم قرية واحدة ولكنها وفي معظم كل هذا أصبح الأفراد أكثر غترابا و أقل اتصالا مما أدى إلى:

12. الجازري ، محمد عابد : 1998 ، العولة والهوية الثقافية : عشر أطروحات ،

مجلة المستقبل العربي ، العدد (228) ، ص 14 .

13. أمين ، جلال ، 1998 ، العولة وأخوية الثقافية والمجتمع التكنولوجي الجديد ،

مجلة المستقبل العربي ، العدد (234) ، ص 61 .

فكل فرد يمتلك تصورات و قيم خاصة به هي التي تحدد و تحكم في ردأه
أعماله اتجاه ما يستقبله من طرف المرسل، أي أن الفرد يقوم بترجمة قيمة إلى أفعأ
ورود أفعأ، فالاتصال لا يكون ممكناً دون توافر نوع من التكيف و التطأ
والمشاركة بين قيم الأفراد المتفاعلين، إلا إذا كان الاتصال قائماً على السلطة والأوامر
و على هذا الأساس وحدها العقلانية التوافقية التي تعمل على تحقيق التفاهم المتباد
و التفاعل الحواري يمكنها أن تساعدنا على بلورة تفاعل اجتماعي متعددة عأ
العقلانية الادائية التي تعمل بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة. لذا يجب علينا أن نبحث عأ
شروط التفاهم المتبادل من خلال الثقافة و اللغة باعتبارها الإطار الذي يحدث ف
النواصل الإنساني ويمارس من خلاله الأفراد الفعل الاجتماعي.

1-التصور النظري للاتصال

تعددت تعاريف الاتصال بتعدد مجالات الدراسة و تباين اختصاصات العلم
الإنساني بهذا المفهوم. و في العموم هو تبادل الآراء و الحقائق، الأفكار
الفعألات... بين الأفراد من أجل تحقيق الفهم المشترك. و هناك من يعتبره العملأ
الذي يتم بواسطتها نقل المعلومات و المعاني و الأفكار من شخص لآخر في أي جمأ
و أبت نشاط اجتماعي و هذا ما لاحظناه في الواقع من خلال إجابات نسبة قليلة م
المتصورين و التي كان مفادها: النقل، الإرسال و التعبير... كما ورد هذا التعريف
للفكر علم الاجتماع محمد عاطف غيث أن الاتصال هو انتقال المعلومات
أو الاتجأهات أو العواطف من شخص أو جمأ إلى شخص أو جمأ آخر
علاال الرموز... (لكن بما أنه تحدث عن الرمز فإنه يتحدث بالضرورة ع
العملأ، "فالاتصال هو أساس كل تفاعل اجتماعي فهو يمكننا من نقل معارف

* اضطراب السوك الإنساني و الحراف لممارسة لتوافقية من خلال سيطرة التقنية
والمعقلانية الوظيفية والادائية. و هذا ما تسبب في :

* الخلل الذي أصاب منظومة القيم الثقافية و التقاليد المسعولة على الوصل بين
الجيلين و نقل المعاني و الحقائق المتعلقة بالموروث الثقافي و التاريخي و الهوية الوطنية
والتأولة بين أفراد كل مجتمع.

* تفكك و انحلال عقد الجماعة الذي يتضمن التماسك و التضامن بين الأفراد مما
أدى إلى الفوضى التي تخللت المجموعات.

* عدم الشعور بالمسؤولية و اختلال السلوك.

"الاتصال الصافي الشفاف هو أسطورة (خرافة). فالرسائل هي غالباً ما تكون
مزودة الحدين. فالمرسل يختار و يتقني المعطيات الآتية من المرسل أما الرهانات
الحقيقية فهي غالباً محتجة أو متخفية و هذا ما نحاول الأبحاث في الاتصال الوصول
إليه. " خاصة عند اعتماد المفهوم الشائع و الخاطئ في نفس الوقت للاتصال
والتأتم على مجرد النقل دون الأخذ بعين الاعتبار الطرف الآخر و ما يحول ل
وتفكيكه، و هذا ما سيوضحه الشكل الموألي. فبدلاً مما هو معروف في عملأ
الاتصال:

الرسالة

المرسل
↓
المستقبل
نقل استعمال مستقبل و مفسر بدلاً من مستقبل فقط بمعنى:

الرسالة

المرسل
←
المستقبل (المفسر)

الأشخاص المتصويدين (المستقبل) لم يعد لها جدوى لدى الناقل (المُرسل)¹⁰، لار المل الشيء يعني تحويله إذ يصبح المكان الأول حاليًا منه. وهذا خطأ في ما يخص العملية الاتصالية. بمعنى آخر إن "عملية التبادل في هذا النمط تكاد تتعدم وهذا لا بشكل اتصالًا إذا ما تجاهلنا أهم عنصرين في هذه العملية التبادل و التفاعل. ففي أي عالم محدد نلاحظ أن عمليات الاتصال تقودنا بالضرورة إلى التفاعل بين الفرد والأخر.¹¹ "فالانصال لا يتوقف على مجرد النقل الغير الواعي للمعلومات والأفكار.¹² بل و كما ذكر هابرماس **Habermas** الاتصال هو القائم على الحوار التفاهم، الحرية و محاولة فهم الآخر لا على السيطرة وحب الذات.... فهو يتم أساسا بين الأنا و الآخر، و هذا التفاعل قد ينتج عنه التفاهم و التعاطف أو الدافئ والنباعد،و يتم التفاهم حين تتطابق حالات الأنا لدى الطرفين و يحدث سوء الفهم إذا تعارضت. و هذا التطابق يؤدي إلى التفاهم. و بعبارة أخرى "فإن كل عالم يسعى إلى تحقيق نوع من الرضا و إيماده إلى الطرف الآخر وغالبًا ما يؤدي ذلك إلى تعبيرات رمزية عن الثقة و الاعتماد المتبادل و هكذا فإن عملية التفاعل الاجتماعي تخلق و تغذي و تحافظ في كل فاعل اجتماعي الحاجة إلى الاستمرار في المشاركة في العلاقات الاجتماعية"¹³. "فالانصال هو فعل تعاقدي و المشاركة في بناء الواقع على أساس نسق من الرموز و التي تسمح بالتبادل بين مجموعة من الأفراد عن طريق عملية التفاعل آخذين بعين الاعتبار نسق الرموز (معرفة النظام الرمزي)، الخبرة، الاتصال و القدرة على الإقناع، و نظام العلاقات بين الأفراد و المكائنات.¹⁴ وهذا ما لمسناه من خلال الواقع في معظم إجابات الأفراد كما ستطرق إلى ذلك في باب البحث الميداني، و الذين اجمعوا على أن الاتصال هو وسيلة الحوار قائمة على

ويسر التفاهم بين الأفراد⁴ هذا و نجد نفس التعريف و المعنى عند محمود عودة في كتابه "أساليب الاتصال و التغير الاجتماعي الذي يشير إلى العملية أو الطريقة التي تنتقل بها الأفكار و المعلومات بين الناس داخل نسق اجتماعي معين يختلف من حيث الحجم و من حيث محتوى العلاقات المتضمنة فيه. بمعنى أن هذا النسق الاجتماعي قد يكون مجرد علاقة ثنائية ثنائية بين شخصين أو جماعة صغيرة أو المجتمع الإنساني إن صح إطلاق هذا التعبير.⁵

الاتصال هو أساس المجتمعات الإنسانية، فهو قبل كل شيء عملية تفاعل اجتماعي بين الأفراد تقوم على التبادل و التماثل. فإعطاء محمود عودة الاتصال معنى العملية بين أنه عملية تفاعل تقوم على الفعل ورد الفعل مما يكسب هذا المفهوم ديناميكية و هي خاصة أساسية من خواصه. إذ يمكن أن يعرف التفاعل على "أنه اتصال بين شخصين أو أكثر يتضمن إثارة و استجابة تبادلية"⁶ أي أن الطرفين كلاهما يؤثر ويتأثر. فالفعل الاتصالي يتضمن معينين. إذ "يمكن أن نفهم من اتصال إصال أو نقل معلومة أو فكرة (شيء) إلى شخص آخر أي أنه مجرد عملية نقل و تحويل بسيطة للمعلومات، أما المعنى الثاني فهو أعمق و أساسي و هو أن نتواصل مع شخص ما أي تكوين صلة (رابط) مع الآخر أي قيام عملية تفاعل...".⁷ فمثل القدم الاتصال ليس نقل معنى محدد بين الأفراد و إنما "هو إنتاج معنى مشترك مع الآخر أي حدوث فعل المشاركة و التفاعل⁸ وهذا ما توصل إليه بيروودستل (1951) **Birdwhistell**⁹ عندما أثبت تحول مفهوم الاتصال من مجرد النقل إلى التفاعل. وهذا يعمد مفهوم الاتصال أن يكون مجرد نقل. إذ أن الأفكار التي لم نقلها من شخص لآخر أو لأشخاص آخرين قد يفهم منها أنه بعد انتقالها

فالمجتمع الإنساني لا يستطيع الحياة دون اتصال كما أن الاتصال لا يمكن أن يحدث إلا داخل ومن خلال نسق اجتماعي، حيث ذكر جورج هاربرت ميد **G. H. Mead** "إن عملية الاتصال لا يمكن أن تقوم وأن تحدث في حد ذاتها ولكنها تحدث كافتراض مبدئي للعملية الاجتماعية و في مقابل ذلك تعد العملية الاجتماعية افتراضا مبدئيا للاتصال الممكن" ¹⁸ فالإطار الاجتماعي للاتصال يعالج القضايا الذاتية و التفاعلية في العملية التواصلية بين الأفراد و الجماعات ، و هي عامة في تحديد فعالية الاتصال. كما يدرس التفاعلات العلائقية بين أطراف عملية الاتصال وما يحدث بينهم من توافق أو صراع و إشكالات في توافق دوافعهم أو لعارضهم وأساليبهم في التعامل ¹⁹ بالإضافة إلى الأدوار الاجتماعية التي يلعبها كل فرد بالنسبة لأفراد آخرين و تأثيرها على عمليات التواصل بين الأجيال. و كل هذا يصطلح بمصطلح "الإطار الثقافي ، بعاداته ، معايير و قيمه و إمكاناته و تراثه و مسوغاته و ممنوعاته، هذا الإطار (الثقافي) هو الذي يقوم بتشكيل أنماط السلوك و تحديد ما و بالتالي يتدخل في جميع مراحل عملية الاتصال و يعتبر المفتاح للعملية التواصلية.

لقد كانت الدراسة السوسولوجية للاتصال في الو.م.ا على سبيل المثال خاصة بوضع الثقف **Acculturation** لمختلف المجموعات المهاجرة لهذا البلد. وعلاوة كان من المهام الأولى لعملية الاتصال كيفية المزج بين هذه الثقافات و إدابتها في النسق القيمي الكلي السائد و المشترك (و نفس السيورة حارية في المجتمع الجزائري) . فكل المجتمع اهتم بالاتصال كوسيلة للربط و الذوبان و الاندماج الثقافي.

التفاعل و تبادل الآراء و الأفكار و القيم بين الأفراد في إطار مرجعية ثقافية مشتركة (والتي هي في مرحلة البناء) من جهة ، و من جهة أخرى إذا اختلف الأفراد في المرجعية لابد من معرفة الآخر وثقافته، قيمه، و مراعاة خصوصية الأطراف والاستماع للآراء الآخر في جو صريح بهدف تجانس الأفكار مع محاولة اختبار التعايش بين الأفكار الثقافية المتعددة و الاحتكاك الدائم بمختلف الآراء و المواقف التي تولد أفكارا جديدة... بالنسبة لباتيسون **G. Bateson** مفهوم الاتصال يجب أن يفهم بالسيورات التي يتأثر بواسطتها الأفراد ببعضهم البعض و في العلاقات البين فردية إذ لا يمكن للأفراد أن لا يتواصلوا كما لا يمكن أن لا يؤثر أحدهم في الآخر. ¹⁵ لكن الشكل الرئيسي في الاتصال هو الفهم ¹⁶ فإشياء المعنى المشترك بين الأفراد هو أساس العملية الاتصالية...

بعد الإلمام بأهم المفاهيم للتداولة سنحاول الاقتراب أكثر من المفهوم عن طريق مجموعة من المقاربات السوسولوجية و الانثروبولوجية للوصول إلى عمق المفهوم...

2-الاتصال من المنظور السوسولوجي

احتل الاتصال الإنساني في علم الاجتماع مكانة هامة باعتباره ظاهرا اجتماعية لها وقعها على الناس وعلاقاتهم الاجتماعية و الأدوار التي يقومون بها من خلالها و المكائات الاجتماعية التي يحتلوها، فهو في الأساس تفاعل اجتماعي. "كل نظام اجتماعي هو قبل كل شيء نظام اتصال" ¹⁷

« Tout système social est avant tout un système de communication ».

1- الاتصال من المنظور الانثروبولوجي :

ماذا يفهم العلماء من كلمة اتصال؟ فالكثابة في هذا الموضوع متنوعة تتنوع الطاليد و الممارسات و الاعتقادات مما نتج عنه كثرة التعريفات و النظريات. الاتصال لكل شيء هو تجربة انثروبولوجية أساسية. فالتواصل بالغةزفة يعني التبادل مع الآخر و من خاصية كل تجربة شخصية و كل مجتمع أن يجدد لنفسه قواعد الاتصال فيه... الاتصال هو نموذج ثقافي. إذ أن علماء التاريخ كشفوا تدريجيا أن الاتصال كان دوما ارباطا بالنموذج الثقافي أي بصورة الآخر... ففعل الاتصال البسيط يختصر في الواقع التاريخ ، ثقافة و مجتمع... و يرتبط الاتصال في الانثروبولوجيا بموضوع الثقافة ، وذلك من خلال الرموز الثقافية التي يشترك فيها الفرد مع أفراد مجموعة أخرى باعتباره عضوا في تلك المجموعة ، من خلال تعريف تايلور **Taylor** الشهير ، و باعتبار أن الثقافة هي كل ما يجب معرفته لكي يكون الفرد عضوا في المجموعة.

« La communication d'un point de vue anthropologique c'est la « performance de la culture »²⁴ . »

في هذه الحالة الاتصال لا يعني فقط الرسائل الكلامية (الشفهية) ، التي يقوم الفرد بإرسالها عن قصد. بل يمكن أن يحدث من خلال دمج مجموعة من العوامل البشرية و الغير مقصودة التي تساهم في إعطاء معنى للتفاعل و التبادل الذي يحصل بين الأفراد من ثقافة واحدة أو ثقافات متباعدة. بمعنى انه حتى وإن وجدت مجموعة من الأفراد فان الاتصال يحدث بمجرد أنهم يتقاسمون قيما ثقافية مشتركة يربطون إلى ثقافة واحدة، من خلال لغتهم، تصرفاتهم، تبنهم لنفس أنماط

فالنظرة السوسولوجية للاتصال لا تقوم على اعتبار الاتصال أداة لنقل الرسائل بل تقوم على أساس العلاقات الإنسانية و الاجتماعية الناتجة عن التفاعل الحاصل بين الأفراد ، و وضع كل من المرسل و المستقبل في البناء الاجتماعي و تنظر إلى الاتصالات كمعصر في نمط كلي من التفاعلات المستمرة. فهي تأخذ بعين الاعتبار المتغيرات الاجتماعية و الثقافية التي يحدث الاتصال وفقا لها.

إذ أصبح من البديهي المسلم به في الوقت الراهن الأهمية الكبيرة للاتصال بالنسبة لكل أنواع المجتمعات و المحاسنات الإنسانية. و أن المجتمع الإنساني لا يمكن أن يوجد أو تقوم له قائمة بدون اتصال. "فمن طريق الاتصال ، و الاتصال وحده ، تكون و تنمو المعايير ، و القيم و المضامين الثقافية ، و عمليات التعليم الاجتماعي، و الصراعات التي تكون مجتمعة عناصر أساسية و حيوية في وجود و حياة أي مجتمع".²⁰ كما ينظر إليه "كقوة فعالة لها تأثيرها على التنمية و الغير الاجتماعي".²¹ " فالإنسان فاعل لغوي ، بمعنى أن أكون إنسانا يجب أن أكون على علاقة مع الغير أي تواصل".²² و في نفس الوقت تكوين معنى مشترك مع الآخر. "فالاتصال هو فعل تعاقدية ، و المشاركة في بناء الواقع على أساس نسق من الرموز ، والذي يسمح بالتبادل بين مجموعتين من الأفراد عن طريق عملية التفاعل المتبادل بعين الاعتبار نسق الرموز (معرفة النظام الرمزي) ، نظام الاتصال و القائم على المحاور ولقدرة على الإقناع ، **Compétence persuasive**. نظام العلاقات بين الأفراد والمكانات"²³ بالإضافة إلى البعد الدلالي الذي يساعد على عملية الفهم وإدراك المعنى .

الأنثروبولوجيا بتحليل سموررات التفاعل و التواصل بين الأفراد و التي تؤدي إلى إنتاج أنظمة ثقافية تبادلية مختلفة²⁶ و هنا تكمن العلاقة التبادلية بين الاتصال والثقافة. والثقافة تنتقل و تتجسد من خلال الاتصال أي بالممارسة و التفاعل.

الاتصال من منظور الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس Jürgen Habermas

يعتبر يورغن هابرماس من أهم الفلاسفة و علماء الاجتماع و السياسة المعاصرين. يعد من أهم منظري مدرسة فرانكفورت، و هو صاحب نظرية الفعل التواصل. فبالرغم من الرصيد المعرفي الضخم لمفكري المدرسة الأوائل (هوركهايمر، أدرنو، هابرت ماركس) إلا أن هابرماس أصبح رائد النظرية النقدية و الوريث الرئيسي للمدرسة...

ورغم بعض نقاط التشابه بينه و بين الفلاسفة الأوائل، إلا أنه سار بالمدرسة في اتجاه مخالف. فلقد "أقنق" هابرماس الخط الفلسفي النقدي نفسه الذي تأسس على يد هؤلاء الفلاسفة الكبار عبر استعابه لفلسفاتهم ثم السير بالنظرية النقدية داخل تراثين حديثة لم يطأها البحث النقدي من قبل لينتهي إلى دراسة استيعابية كاملة للفلسفة الألمانية وتاريخها، بالإضافة إلى اطلاعه على تيارات علم الاجتماع الحديث (الكلاسيكي). ومن هذه القاعدة الفلسفية الاجتماعية المتينة شرع ببناء نظريته النقدية²⁷. وبخاصة تأثره برواد مدرسة فرانكفورت الذين "جمعوا بين الفلسفة والأنثروبولوجيا والمنظور السياسي في دراسة الواقع"²⁸. إن أهم إنجاز ليورغن هابرماس في نظرية الفعل التواصل، و التي أسسها انطلاقا من مجموعة من النظريات النقدية والاجتماعية كخطية جورج هابرت صدق، الذي، أنه "التفاعلا تحكمه

السلوك... و بالتالي فإنهم ينتمون إلى سبل تواصلية واحد... أي تفاعل الأفراد فيما بينهم أين يؤثر أحدهم في الآخر.

كان ساير Sapir من الأوائل الذين اعتبروا الثقافة نسق من الاتصالات 'البين فردية' **Interindividuelle**. عندما قال " المكان الحقيقي للثقافة هو المكان الذي تحدث فيه التفاعلات الفردية"²⁵، فبالنسبة له الثقافة هي مركب من المعاني و الدلالات التي يتواصل أفراد مجموعة معينة بواسطتها من خلال تفاعلهم معا. هناك مجموعة من العلماء تبنا حاس ساير Sapir و المفهوم الذي توصل إليه، فحاولوا تنظيمه و دراسته مؤكدين على المعنى الذي يتولد من هذه التفاعلات التي تحدث بين الأفراد.

في الخمسينات، في اليوم. أظهر تيار على رأسه جري جوري باي سولا في الخمسينات، Gregory Bateson، مدرسة بالو التو Palo Alto سمي الأنثروبولوجيا الاتصال Anthropologie de la communication أهم بالاتصال الغير شفاهي أكثر من الاتصال الشفهي بين الأفراد.

فالارتصال بالنسبة لهذا التيار ليس عبارة عن علاقة بين المرسل و المستقبل. والارتصا كنتيجة لادوار معينة يقوم بها مجموعة من الأفراد مجتمعين و موجودين في وضعية من التفاعل المستمر، كل فرد يساهم لكن بطريقة الخاصة. "إنهم يشبهون وضعية الأفراد و الأدوار التي يقومون بها بالتواطوات الموسيقية على السلم الموسيقي (١١١) لكن التقسيم الذي يحدث في الأدوار بين الأفراد يكون غير واضح نظرا للتفاعل الحاصل بينهم. و على هذا الأساس توصلوا إلى أن الثقافة لا يمكن أن تحدث إلا من خلال هذا التفاعل. و من هنا كان اهتمام

علائل الرأسمالية. فقد ركز على الهيمنة التقنية و العقل الاداتي المسيطر في هذا النظام وهما ما ميز أعمال ماركس في نظر هابرماس لتؤكده على العمل كخاصية مميزة للإنسان.

فيالنسبة لهابرماس الفعل التواصلي الديمقراطي القائم على سلطة العقل لا يمكن أن يتم إلا في إطار حوارى يحالي من الالتزامات السلطوية و عن طريق العقلانية و العقل النقدي. و بالتالي فهابرماس يقسم العالم إلى نوعين: عالم قائم على اللغة و التواصل. و عالم الأنساق الذي تحكمه العقلانية الوظيفية و الادائية. و الفرق بينهما هو نوع الاتصال القائم داخل كل منهما.

نقد حاول هابرماس Habermas من خلال فلسفة التواصل لجمع بين التفكير الفلسفي و علم الاجتماع في نقد الديمقراطية المادية و تخمير الاتصال الإنساني من قبضة العقل الاداتي و الذاتية. فهابرماس يرى "أن على السوسيولوجيا الحديثة أن تدرس شبكات التفاعل في مجتمع مشكل من علاقات اتصالية و من اتجاه الأخصاص المتعارضين في الاتصال. و يعارض الفعل الاستراتيجي أي العقل و الفعل ذو الهدف النفعي و الاداتي الذي تشكل وسائل الاتصال الجماهيري عدته العقلية"³³. فالفارقة تحدث بمروء من الثورة الكبرى و الحاصلة في الإعلام والاتصال. ليرة جعلت الإنسان أكثر اغترابا و اقل توتصلا، بالرغم من أنها أصبحت تسيطر على كل العالم الذي أصبح قرية واحدة مفتوحة. "و يقترح هابرماس بدلا منه جملة من أمثاط الفعل الأخرى أو العلاقات مع العالم التي تقوم على معايير الفعل الموضوعي و الإدراكي الذي يفرض عليك قول الحقيقة و الفعل ما بين الذاتيات الذي يهدف العمل الأخلاقي و الفعل التعبيري الذي يفرض النزاهة"³⁴، خاصة في نظام

المعايير وتتوسطه اللغة. انه يتأني في المعنى من تكون منطقي تحكمه الفطرة و تتوسطه الإشارات. أي تنتقل من التفاعل الذي تتوسطه الرموز إلى التفاعل الذي تحكمه المعايير"²⁹، من خلال نظام الأخلاق الذي يحاول هابرماس التأكيد عليه ليس فقط بتحليل مضمون المعايير وإنما بطريقة التوصل إليها و ذلك بواسطة نقاش حر عقلائي. فإذا كان هوركهايمر وادورنو يركزون على حرية الإنسان ، فان هابرماس يؤكد على تصوريين. الأول للزوجة بين البنية و الفعل في نظرية كلية. أما التصور الثاني فهو عن العقل و الأخلاق. "إذ ثمة نظام أخلاقي ضمني يحاول هابرماس الكشف عنه و هو الأخلاق الكلية التي يجب أن تقوم على أساس عقلائي يخضع لمعايير وليس عن طريق القوة و القهر . فيتوجه في نظرية فعل التواصل إلى فلسفة اللغة بتوظيف بعض أسس اللسانيات الحديثة في نقد المجتمع التقني. فيدعو إلى التحرر مما اسماه بفلسفة الوعي، أي "الفلسفة التي ترى أن العلاقة بين اللغة و الفعل كالعلاقة بين الذات و الموضوع ، بينما يؤكد هابرماس أن العلاقة في الفعل التواصلي تكون بين ذات و ذات"³¹ أي التحرر من الفكر التحريبي بمعنى العلاقة القائمة على أساس مادي. و حتى لا تكون أسرى للعقل الذاتي. و يرى أن الفعل يمكن أن يأخذ صورتين: الفعل الاستراتيجي المتضمن الفعل الغائي العقلاني ، و فعل التواصل الرامي للوصول إلى الحوار و التهم المتبادل.

أراد هابرماس تأكيد و توضيح الدور الرئيسي الذي يمكن و يجب أن يقوم به الاتصال في المجتمعات الحديثة. "فيدون لغة و بدون اتصال لا يمكن أن تكون هناك حياة مشتركة. وأكثر فيوسطة البرهنة ، الحوار، التفاوض ، يمكن للديمقراطية أن تحيى والدعاطلة ه حرية تدفق و جريان المعلومات"³². كذلك دراسته للاتصال من

والعمل وإقامة علاقات شخصية مشتركة (سواء كانت علاقات لنوية أو غير لنوية).

إن الماعلين هنا يسعون إلى تفهم موقف الفعل وفهم خططهما للفعل وذلك لكي يسفعا أفعالهما بالتراضي أو الاتفاق بينهما. أين تأخذ اللغة دورا متميزا في هذه الحالة.³⁸

وبالتالي يمكن تعريف الاتصال بأنه عملية اجتماعية يتفاعل الأفراد من خلالها بطريقة عقلانية دون سيطرة الذات الفردية أو الجماعية ، أين يتم التوصل إلى التفاهم والبادل والقول الحر بالآخر على أساس عقلائي قائم على نسق اجتماعي ديمقراطي يتعامل إنساني لا على أساس السلطة و الفرض.

كان ذلك الفرض عن طريق التداخل المباشر ، أم استراتيجيا عن طريق التأثير في القرارات تحت غطاء القوانين الرسمية.

أ- نظرية الاتصال

ستطرق إلى دراسة الاتصال من خلال النظرية التفاعلية الرمزية باعتباره تفاعلا اجتماعيا يعتمد على النسق الرمزي القيمي لثقافة المجتمع.

لعلم الاجتماع الألماني ماكس فيبر **Max Weber** يؤكد على أن فهم المجتمع يكون من خلال فهم الأفراد الذين تتفاعل معهم. و بالتالي فإن فهمنا المجتمع للصراع القائم بين القيم الثقافية و تأزم الاتصال يكون أساسا من خلال عملية التفاعل التي ترمي إلى فهم مختلف القيم و التصورات للأفراد. فالتفاعل في الأساس يكون عن طريق الرموز أو عن طريق الاتصال القائم وجهها لوجه. فمعاني الرموز هي التي تحدد أنماط السلوك و تساعد على فهم عملية التفاعل بينهم ، و هي

الدعابة الذي تستعمله الدولة و المؤسسات السياسية لفرض سيطرتها على الأفراد وأحد من حرياتهم كوسيلة للهيمنة التي تمارسها الطبقة المسيطرة تحت غطاء الخلفيات الرسمية المبررة قانونيا.

ورغم هذا يؤكد هابرماس إمكانية الخروج من نطاق الاستلابية الطاغية للدعابة و ذلك عن طريق خلق و تنشيط أنماط جديدة من الاتصالية بين الأفراد والسلطة القائمة أو بين المجتمع و الدولة. على أن يكون هذا الاتصال غير مشروط بأية مقاييس و ارغامات مفروضة. أي أن يكون مستقلا عن الصياغة الدستورية أو النطاق الايديولوجي الذي يلتزم به النظام³⁵ ، و هذا ما نجده في مواقف الميدان العام الذي يعتبره ميدانا للاتصال أين يكون الرأي أو وجهة النظر مؤسسة بواسطة العقل بما أنما تنشأ من مواجهة الحجج و العقل. "فالميدان العام هو بمثابة الوسيط بين الدولة

والمجتمع المدني ، أين يحدد هابر ماس نموذجاً اتصالياً عقلائياً قائماً على المناقشات والحوار"³⁶. فبالنسبة لـ **Jean-Marc Ferry** يؤكد أن أساس مشكلة الاتصال عند هابرماس هي الأخلاق و التي لا يمكن تجاوزها إلا عن طريق جدل قائم على خطاب عقلائي يحرر العقل من الهيمنة الذهنية الذاتية. ففكره الأساسية هي السعي إلى تصوير نمط جديد من الروح الاتصالية داخل المجتمع. "فموقف الاعتراض قد تجسد في فكره و كأنه فقدان للعلاقة الاتصالية مع الأنا الفردية أو الأنا الجماعية ، و أن مفهوم الاعتناق و التحرر بالنسبة إلى الهيمنة الحالية هو ذلك الغزو الذي يكون التفكير الذاتي بفضلله قادرا على خلق ضروف مساعد لانبعاث التوصل بين الذات و نفسها من خلال سياق اتصالي حر بين الأنا و الآخر"³⁷ فمفهوم الفعل التواصلي يحيل إلى الفعل المشترك لذاتين على الأقل قادرين على الكلام

أو معنوي. و يكون لكل رمز معنى يحدد من قبل المجتمع. و يشير إلى وظيفة اجتماعية تشبع حاجات الفرد و تساعد على التفاعل مع بقية أفراد المجتمع المعاني الرموز ماهي إلا نتائج اجتماعية مخلوقة من قبله لتحديد أنماط سلوك أفراد الوضوح عملية تفاعلهم و هي مكتسبة ، أي أن الفرد يتعلمها من قبل الآخرين المصيرين به بشكل شعوري أو لاشعوري كاستخدام اللغة...⁴¹ فعملية التفاعل الرمزي هي التي تجدد الذات الفردية من خلاله التفاعل مع الآخر و ما سلوك الفرد إلا العكس لهذه العملية و هي في الأساس تفاعل أسامه اللغة...

مكتسبة. وعلى هذا الأساس تتحدد الذات الفردية التي تشكل من خلال عملية الاتصال والتي هي في نفس الوقت انعكاس لها.

وبالنسبة لتالكوت بارسونز " فالنظام الاجتماعي هو عبارة عن شبكة من العلاقات الاجتماعية المبنية على عملية التفاعل الاجتماعي الحاصلة بين الأفراد والتي تأخذ أنماطاً مختلفة و مكونات لنظام يحصرها في النظام الاجتماعي و الثقافي"³⁹ ، وكل بنية في هذا النظام لها وظيفتها التي تتحدد بالنسبة للعلاقات و التفاعلات، وبالتالي فإن أي نشاط فردي أو جماعي يقوم أساساً على عملية التفاعل الرمزي، ويرى هاربرت ميد "أن كل فرد يؤثر في الآخر من خلال قاعدة للتبادل الرمزي البين فردي أين تحول العملية من مجرد النقل إلى تفاعلات مشاركته في الرموز و بالتالي يحدد الفرد هويته".⁴⁰ و يلعب التكامل بين النظام الثقافي و النظام الشخصي للفرد تحقيق التكامل للفرد مع النظام الاجتماعي أي بين مختلف الفاعلين في الجماعة الاجتماعية، ومن أهم العناصر المحققة لذلك نجد الأنماط الثقافية و القيم المشتركة ، اللغة كوسيلة اتصال أساسية و فعالة ، الأفكار التي تتضمنها القيم و الأنماط الثقافية... كل هذه العناصر مرتبطة بتحقيق التكامل و التفاعل.

حاتمة:

التفاعل الرمزي يشير إلى ذلك التفاعل الحاصل بين الأفراد من خلال الرموز الثقافية و معظم هذا التفاعل يحدث من خلال عملية الاتصال. فهناك من يرى أن الفرد يعيش في عالم من الرموز و المعاني المحيطة به في كل موقف تفاعل اجتماعي، يتأثر بها و يستخدمها بوسيا من خلال معانيها للتعبير عن حاجاته الاجتماعية (و رغباته الفردية. و معنى الرمز هو عبارة عن إشارة مميزة للدلالة عن موضع معين مادي

11-Abraham, A, Moles, Théorie structurale de la communication et société, Masson Paris, 1995, p 89.

12-Yves Winkin, Op cit, p 70.

13- بيوسي كوهن، النظرية الاجتماعية الحديثة، ترجمة عادل مختار الحارثي، مكتبة لعلبة الشرق، القاهرة، ط 3، 1980، ص 154.

14-Rodolphe Ghiglione, L'Homme communicant, Op cit, p 102.

15-Jean Caune, Culture et communication, Op cit, p 30.

16-Philippe CABIN, La communication, Etat des savoirs, Edition Sciences Humaines, PUF, 1998, p 23.

17-André Akoun, Pierre Ansart, Le Robert, Dictionnaire de sociologie, Seuil, Paris, 1999, p 90.

18- محمود عودة-أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي-تقدم د. السيد محمد حموي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1408هـ - 1988م - ص 61.

19- مصطفى حجازي، الاتصال الفعال في العلاقات الإنسانية والإدارة، المؤسسة العلمية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1420هـ - 2000م - ط 3 - ص 45.

20- محمد الجوهري وآخرون - علم الاجتماع ودراسة الإعلام والاتصال - مرجع عالمي - ص 16.

21- ليس المرجع - ص 130.

الهوامش

1- محمد الجوهري وآخرون - علم الاجتماع - دراسة لإعلام والاتصال، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992، ص 16.

2-Philippe Cabin, La communication - Etat des savoirs, Jean-François Dortier, Ed Science Humaines, 1998, p1.

3-Philippe Cabin, La communication, Etat des savoirs, Op,cit, p1.

4-محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص 72.

5- محمود عودة، أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي، دار النهضة العربية، بيروت، 1988، ص 5.

6- محمد احمد بيومي، علم الاجتماع الثقافي، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 76.

7-Rodolphe Ghiglione, L'Homme communicant, Armand Colin, Collection U, Paris, 1986, p 97.

8-Dictionnaire des Notion, Encyclopaedia Universalis, France, S,A, 2005, p 207.

9-Yves Winkin, Anthropologie de la communication, De la théorie au terrain, Essais, Edition du Seuil, 2001, p 80, 81.

10- احمد محمد موسى، المدخل إلى الاتصال الجماهيري، مكتبة زهراء الشرق، ص 49.

31- عطيات أبو السعود-المصداق الفلسفي للقرن العشرين-مشاة المعارف- الإسكندرية-2002، ص 106.

32-Philippe Cabin- La communication, Etat des savoirs- Edition Sciences Humaines, PUF, 1998, P 17.

33- أرومان و ميشال ماتلار، تاريخ نظريات الاتصال، تروم، نصر الدين العياشي، المصداق رابع، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط 1، 2005، ص 158

34- نفس المرجع، ص 159،

35- علاء طاهر، مدرسة فرانكفورت، من هوركهايمر إلى هابر ماس، مرجع سابق، ص 107، 108.

36-Philippe Breton- serge Proux- L'explosion de la communication- La Découverte Paris- 1996- pp 215-216.

37-Jean-Marc Ferry, Vérité Humaine et liberté Humaine chez Habermas 111 من علاء طاهر، مرجع سابق، ص 111

38-عطيات أبو السعود- المصداق الفلسفي للقرن العشرين- مرجع سابق- ص 106.

39-مصباح عمر، علم الاجتماع، الرواد والنظريات، دار الأمة، الجزائر، 2004، ص 116.

40-Jean Lohisse, La communication de la transmission relation, Edition De Boeck Université, Ed 3, Paris, 2007.

22-Dictionnaire des notions, Encyclopaedia Universalise, France, S,A, 2005, p 207.

23-Rodolphe Ghiglione, L'Homme communiquant, Armand Colin, Collection U, Paris, 1986, p 102.

24-Yves Winkin, Anthropologie de la communication, De la théorie au terrain, De Boeck Université, Edition du Seuil, 2001, p 14.

** مرتبط بالعلاقة بين الأفراد- انظر سهيل إدريس، المنهل، قاموس فرنسي- عربي، دار الآداب، بيروت، 2005، المنهل ص 669

25- Denys Cuche-La notion de culture dans les sciences sociales -Approches- CASBAH Edition Alger 1998, p49

26-Ibid , p 49

27- علاء طاهر - مدرسة فرانكفورت- من هوركهايمر إلى هابر ماس - منشورات مركز الإنماء القومي- بيروت- لبنان- ط 1- ص 80.

28- نفس المرجع، ص 91.

29-Jürgen Habermas- Théorie de l'agir communicationnel Pour une critique de la raison fonctionnaliste, Tome 2, 1987, p 08.

30- جمال العيفة- الثقافة الجماهيرية- عندما تخضع وسائل الإعلام والاتصال للنوى السوق- منشورات جامعة باجي مختار -عنايه-الجزائر- 2003- ص 99 .